العودة المتخيلة ـ الماضي إن حكى

شفيق ناظم الغبرا*

عدة وجوه لحقّ العودة الفلسطيني

سؤال العودة إلى فلسطين من أكثر الأسئلة صعوبة، وإن كان أكثرها بساطة وبديهية. فمنذ طفولتي، لم تعنِ لي العودة إلى فلسطين شيئاً واحداً فقط، وما زال هو الأمر نفسه حتى يومنا هذا.

أنتمي إلى عائلة تشردت في سنة ١٩٤٨ من جهتَي الأم والأب. والدتي من مدينة طبرية، ووالدي من مدينة حيفا، وقد خسرا كل ما تملكه عائلتاهما بفعل التطهير العرقي الصهيوني الإسرائيلي الذي وقع قبل قيام دولة إسرائيل، ثم استمر بلا توقف بعد إعلان قيامها في ١٤أيار/مايو ١٩٤٨ وبدء الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى.

استمرت إسرائيل في أثناء الحرب، في النصف الثاني من سنة ١٩٤٨، في ممارسة سياسة تطهير عرقي على جميع المستويات، وازدادت قضية عودة اللاجئين تعقيداً عندما قررت إسرائيل أن تمنعهم من العودة، لكن منع العودة استمر إلى يومنا هذا، وشمل في كل مرحلة فئات جديدة من الشعب العربي الفلسطيني.

إن منع عودة كل عربي فلسطيني أُخرج من منزله عنوة، أو احتمى خلال الحرب في قرية مجاورة لقريته، هو المحرك الأساسي لقضية العودة لدى الشعب العربي الفلسطيني. ففي الحروب، يحقّ لكل مَن لجأ من المدنيين إلى مكان آمن في العودة إلى منزله بعد انتهاء الحرب والمعارك، لكن، في الحالة الفلسطينية مُنع اللاجئون من العودة حتى لو انتقلوا إلى ملجأ على بعد أمتار من منزلهم. في سنة ١٩٤٨، شُرّدت عائلتي وصودرت أملاكها الفردية والجماعية، ومُزّق ترابطها الجغرافي لتتوزع على دول وبقاع شتى.

أن أولد في الكويت من أسرة عربية فلسطينية بعد خمسة أعوام ونيف من النكبة، شكّل لديّ موقفاً مبدئياً من الصهيونية بصفتها قوة ظلامية استغلت أحوال اليهود الذين عانوا جرّاء العداء للسامية في أوروبا، فاستقطبتهم إلى فلسطين لأسباب سياسية، فلا المكان لهم ولا الأرض أرضهم. ولم يتكون المشروع الصهيوني من مجموعة مضطهدة تبحث عن مأوى، مثلما يحدث مع اللاجئين في العالم، وإنما من خطة قامت بها مجموعة

* أستاذ العلوم السياسية في جامعة الكويت.

تحمل عقيدة استيطانية واستعمارية، وقد استغلت هذه المجموعة المكونة من حاييم وايزمن وديفيد بن ـ غوريون وغيرهم من قادة الحركة الصهيونية سقوط الدولة العثمانية واحتلال بريطانيا لفلسطين في سنة ١٩١٧، لبناء مشروع هدفه الاستيلاء على الأرض وطرد سكان البلد الأصليين.

الصهيونية، فكرة استعمارية وعنصرية نتجت من الخيال؛ فلا اليهود في أوروبا كان لهم علاقة حقيقية بفلسطين، سوى علاقة روحية كما للمسلمين والمسيحيين في العالم تجاه فلسطين، ولا يهود العالم اعتبروا على مر القرون فلسطين والقدس عاصمة سياسية ووطناً للحياة والمواطنة. كانت فلسطين موطناً لسكانها وأهلها، تماماً كما كانت بلاد الشام والجزيرة العربية وبقية الأوطان العربية وغيرها موطناً لسكانها.

لم يخطر في بالي أنني سأذهب إلى فلسطين المحتلة لأول مرة في حياتي لتوقيع كتابي "حياة غير آمنة: جيل الأحلام والإخفاقات" (بيروت: دار الساقي، ٢٠١١). فعلى مدى ثمانية أيام من آب/أغسطس ٢٠١٢، وبدعوة من "مركز علاج وتأهيل ضحايا التعذيب" في مناطق السلطة الفلسطينية تعرفت إلى فلسطين المحتلة. لم تكن هذه الرحلة مخططاً لها، وهو ما دفعني إلى تكرارها ثانية لمدة تجاوزت الأسبوع في كانون الثاني/يناير ٢٠١٣، للمشاركة في مؤتمر مركز "مسارات" في رام الله المحتلة. وقد تكررت الزيارة في سنة ٢٠١٦. هذه رحلات لا تُنسى، بكل ما تثير من ألم وأمل.

في تلك الزيارات لفلسطين شعرت بأنني أمارس جانباً روحياً وإنسانياً من حقي في العودة، وفي كل رحلة من تلك الرحلات لم أستطع أن أتحكم في مشاعر جارفة اجتاحتني. فعلى الرغم من كوني وُلدت في الكويت في سنة ١٩٥٣، وأصبحت مواطناً كويتياً نظراً إلى ارتباط والدي، طبيب القلب، بالكويت منذ أوائل خمسينيات القرن العشرين، فإن فلسطين بدت لي مكاناً مألوفاً؛ لم أشعر بغربة عن الأرض هناك.

كان اللقاء الأول مع فلسطين كأنه اللقاء المئة. لم تغادرني في تلك الرحلة الألفة الممزوجة بالحزن. وفي إبان رحلتي الخلابة إلى فلسطين شعرت بأنني أمارس حقي في العودة إلى المكان الذي بدأت معه الحكاية؛ نكبة ١٩٤٨. شعرت بأنني عشت فيها حياة سابقة. شعور غريب أخافني، لكنني سرعان ما تصالحت معه؛ فبينما كنت أسير في طرق وشوارع وبين قرى فلسطين، شعرت بأنني أعرف هذا المكان حق المعرفة، وذلك يعود إلى كثرة ما قرأت، وعُمق ما سمعت من أُسرتي عن تاريخ فلسطين وسهولها وجبالها ومدنها وطبيعة الحياة فيها.

كيفما تجولت في المركبة أو سيراً على الأقدام في مناطق الضفة الغربية المحتلة، لم يغب عن ناظري الاستيطان بتعبيراته الفجة، وبانتشاره المتوحش على رؤوس الجبال والمرتفعات الفلسطينية. لقد شيدت إسرائيل مدناً استيطانية لمحاصرة البلدات الفلسطينية، ووصل عدد المستوطنين في الضفة الغربية إلى أكثر من ٣٥٠,٠٠٠ مستوطن في ذلك الوقت. هذا المشهد الممتد يؤكد أن الاحتلال الإسرائيلي عملية تطهير عرقي مستمرة، وحالة منع للعودة بلا

توقف. وقد قامت إسرائيل بإضافة ٣٠٠,٠٠٠ مستوطن في محيط القدس العربية، الأمر الذي يجعل عدد المستوطنين يتجاوز ٧٥٠,٠٠٠ إسرائيلي في المناطق المحتلة منذ سنة ١٩٦٧.

الرحلة إلى القدس الشرقية تجربة لا تُنسى، حتى لو تكررت كل يوم. هذه هي المرة الأولى التي أذهب فيها إلى مدينة السلام التي احتُلت في سنة ١٩٦٧، بينما كان الجزء الأكبر من المدينة قد احتُل في سنة ١٩٤٨. وأدت سياسات إسرائيل الاحتلالية في القدس إلى عزلها تماماً عن الضفة الغربية، الأمر الذي يضيّق أكثر على سكانها العرب، ويقطع أوصال المجتمع الفلسطيني المتشابك في القدس وسائر مدن الضفة الغربية. للقدس بعدان: الأول هو المدينة القديمة بمنازلها وأزقتها وأماكنها المقدسة المحاطة بأسوارها الجميلة وبواباتها الهائلة؛ والثاني هو كل ما يحيط بالقدس القديمة وأسوارها، وهو منطقة ممتدة مرتبطة بالقدس يسكن فيها مئات الألوف من الفلسطينيين. القدس جوهرة فلسطين وهي جزء رئيسي من حق العودة.

تقول الأستاذة الجامعية العربية، نادرة كيفوركيان، التي كرست أبحاثها لكشف الجرائم الإسرائيلية في القدس، والتي أرتني جوانب متنوعة من الحياة في القدس:

> كل يوم هنا مختلف عن اليوم الذي سبقه. فالحياة في القدس نضال لا يتوقف. نشعر بطعم كل شيء هنا، حتى الهواء الذي نستنشقه هنا هو متعة بذاته. نحن في حالة أحكام عرفية، وكل شيء ممكن الحدوث في أي وقت. حتى مراهقونا الذين لا يتجاوز عمرهم الثانية عشرة، يُعتقلون بلا سبب، أو بحسب الرواية الإسرائيلية لـ "دواعٍ أمنية"؛ هي الحجة السائدة في كل حادثة مصادرة وقتل وحرمان وسلب وسجن.

وفي الطريق من الناصرة إلى حيفا مجدداً، توقفت لأدخل مع صديقي أديب جرار (من مدينة عكا)، الذي مارس حقه في العودة في كل يوم من حياته (حتى يوم وفاته في عملية جراحية في سنة ٢٠١٧)، أحد الأحراش المحاذية للطريق العام. وفي الأرض كلها تُعرف أماكن القرى التي دمرتها إسرائيل في سنة ١٩٤٨ من نبات الصبّار الذي ميّز القرى الفلسطينية في ذلك الزمن. فعلى أطراف الأحراش ينمو هذا النبات مشيراً إلى مكان الجريمة، حيث دمرت إسرائيل بعد حرب ١٩٤٨ أكثر من أربعمئة قرية فلسطينية بعد أن هجّرت سكانها.

سرنا قليلاً أنا وأديب لنصل إلى مقبرة فلسطينية عربية كبيرة. لقد ناضل أهل القرية التي مررنا بها لإبقاء هذه المقبرة تخليداً لماضيهم واعتزازاهم بجذورهم. فبعد أن دمرت إسرائيل القرية وصودر جميع أراضيها في سنة ١٩٤٨، سعى القاطنون قربها للاستمرار في دفن موتاهم فيها. وبينما يشق الطريق السريع الإسرائيلي القرية القديمة، فإن النضال لدفن الموتى في المقبرة لا يزال مستمراً. وعبر هذا الأمر تمارس هذه القرية حق العودة والوجود.

وفعلاً، فإن السعي لدفن الموتى والحفاظ على المقابر العربية نجده في القدس، ونجده في يافا وحيفا وعكا وفي كل مكان. الصراع على المدافن في فلسطين جزء من حق العودة إلى التاريخ والجذور والجغرافيا. حتى صوت الأذان في عكا يمثل وجهاً آخر لصراع الوجود والهوية.

في عكا الآن قبور لثلاثة مناضلين فلسطينيين أعدمتهم السلطات البريطانية في سنة ١٩٣٠، وذلك لدورهم في الثورة الفلسطينية (ثورة البراق ١٩٢٩) ضد الهجرة اليهودية والاستعمار البريطاني، وهم محمد جمجوم وعطا الزير وفؤاد حجازي. صُدمت جرّاء زخم التاريخ أمامي؛ يا لقوة التاريخ، فالأبطال الثلاثة الذين ذاع صيتهم في ذلك الزمن لا يزالون هنا في قبر يحتفي بمكانتهم. شعرت بأن أرواحهم تتحرك محفزة على البقاء والعودة.

حدث آخر يجسد حق العودة لأبناء قرية إقرث المسيحية التي دمرتها إسرائيل في سنة ١٩٥١، وهُجر سكانها إلى يافا والناصرة وعكا. فقد صادرت إسرائيل أراضي إقرث بالكامل، وسلّمتها لمتعهدين إسرائيليين لاستثمار أرضها والتصرف فيها وفق نظام التأجير لـ ٩٩ عاماً، إلاّ إن مجموعة من شبان وشابات القرية قاموا بمبادرة في سنة ٢٠١٢، تأثراً بالثورات الشبابية العربية، فعادوا إلى السكن في القرية وشرعوا في بناء بعض الغرف.

فوجئت عند صعودي إلى القرية الواقعة على تلة مرتفعة، بوجود شبان من إقرث يبيتون في قريتهم المدمرة. شعارهم ومحركهم "لن أبقى لاجئاً"، كما قاموا برسم "حنظلة" (شخصية رسومات ناجي العلي الكاريكاتورية) على جدران شيدوها قرب الكنيسة التي هي المكان الوحيد الذي لم يُهدم في قريتهم.

كان مفهومي السابق لحقّ العودة مختلف عن مفهومي الراهن. في أول مرة تخيلت العودة على شكل حلم تكرر معي، إذ حلمت وأنا في السادسة من عمري بأني أقود مجموعة من المقاتلين من أبناء اللاجئين عبر البحر، لنصل ليلاً إلى ميناء حيفا على شكل ضفادع بشرية، وبينما أستعد لإعطاء أمر باقتحام المدينة لتحريرها حدث شيء غريب. لم أستطع التقدم وتجمدت في مكاني وترددت في إعطاء الأمر. لقد خشيت من أن يكون هجومي سبباً في تدمير منزل عائلتي ووالدي ومنازل أهل المدينة، إذ أردت أن أعيد المدينة إلى أصحابها بلا دمار. لهذا، بدأت أُفكر في خطة لا تدمر المدينة. لقد مر هذا الحلم ثقيلاً بينما أنا منتظر على أبواب مدينة حيفا لعلّي أجد حلاً لمعضلتي. شعرت بأن أمرنا سيكشف وقد نُباد جرّاء ذلك، وإذا بالحلم ينتهي عند تلك اللحظات الحاسمة.

هذا الحلم، بصفته تعبيراً عن شعور بالحاجة إلى العودة، لم يغادرني في واقع الحال، فعلى الرغم من تكراره وأنا في عمر السادسة والسابعة، فإنني علمت منذ طفولتي بأن مصيري مرتبط بتحقيق العودة بواسطة البندقية، وذلك انطلاقاً من أن احتلال فلسطين تم بواسطة العنف. وكان من الطبيعي أن يقودني هذا كله، خلال الفترة ١٩٧٥ – ١٩٨١، إلى الانضام إلى العمل الفدائي وممارسة الكفاح المسلح في الجنوب اللبناني بعد تخرجي في الجامعة. فقد آمنت بمبادىء اعتنقها جيل كامل في أواخر ستينيات القرن العشرين وطوال سبعينياته وثمانينياته، ومدرسة الكفاح المسلح والمقاومة الفلسطينية بعد هزيمة ١٩٦٧ تصدّرها حق العودة إلى الأرض، كما العودة إلى الحقوق والتاريخ.

تغير مفهوم العودة بواسطة السلاح مع الوقت، إذ بدأت أرى في حق العودة أبعاداً جديدة

إضافية لحقّ العودة الجسدي والجغرافي، كالحقّ في حماية المرويّة (الحكاية) الفلسطينية من التشويه والمحو، فضلاً عن الحق في العدالة وإيقاف الظلم وضرورة بناء ميزان قوى يتحدى ويوازي ما تملكه إسرائيل من قوة. لهذا، فإن حق العودة يعني عدة أمور: فهو يحمل مضامين معينة لأبناء المخيمات، ويعني شيئاً آخر لأبناء غزة، ويحمل معاني شاملة لمناطق متعددة من الشتات بين فلسطينيي أوروبا والغرب والدول العربية.

إن الحق في التمسك بالمرويّة الفلسطينية يجب أن يوضّح كيف قامت دولة إسرائيل بالقوة وعلى حساب سكان البلد الأصليين، وكذلك كيف اجتثّت مئات القرى، وفرّغت الأحياء في المدن من سكانها. قيام إسرائيل تسبب بعسكرة الإقليم العربي وأدى إلى سلسلة من الحروب. لهذا، فإن حق العودة هو الحق في التصادم مع التطهير العرقي الذي مارسته الصهيونية منذ بداية الهجرات الصهيونية في القرن العشرين، وصولاً إلى النكبة حتى يومنا هذا. إن بقاء فعل المقاومة هو ممارسة لحقّ العودة وتطبيق له في المساحة والجغرافيا والقيم.

حق العودة بالنسبة إليّ مرتبط بالحق في الحج إلى فلسطين والوجود فيها للمدد التي أحتاج إليها، وحرماني من حق الوجود على الأرض هو جزء من الظلم الذي يتعرض له كل مَن عاش في ظل التجربة الفلسطينية وقساوتها. فحق العودة مرتبط بالعدالة والحقوق الوطنية والتاريخية الجماعية لكل من هُجّرت أسرته أو أحد أفرادها أو أجداده من فلسطين، وجزء من ممارسة هذا الحق مرتبط بالمقدرة على التواصل مع المكان، بما يسمح، في الوقت نفسه، بإعادة لمّ شمل جزئي أو شامل للعائلة الممتدة في الجغرافيا التي شكلت حاضناً لها.

حق العودة لم يعد بكل بساطة يعني العودة إلى المنزل ذاته الذي عاش فيه والدي أو عاشت فيه والدتي، لكنه يعني الحق في الترابط مع الأرض والمكان، مع الحفاظ على ما تبقّى من الوجود العربي في أنحاء الأرض، كما يعني حماية المنازل التي ما زالت في مكانها، إذ وجدت منزل جدي لوالدتي في طبرية، والذي استخدمه رئيس الشرطة الإسرائيلية لمدينة طبرية، بعد طرد أهل المنزل ومصادرته في سنة ١٩٤٨، كما وجدت مكان عمل والدي كطبيب في مبنى مصفاة حيفا.

في حيفا سارت المركبة بنا: أنا وأديب جرار والأستاذ الجامعي نديم روحانا في اتجاهِ جنوبي المدينة وخارج حدودها. تمعّنت وتأملت المشهد حيث شواطىء المدينة الجميلة، ولوهلة تذكرت بيروت وأوجه التشابه بين المدينتين، ثم عدت ثانية إلى الواقع فأنا في حيفا المحتلة. على هذه الشواطىء تعلم والدي السباحة عندما كان طفلاً ثم شاباً، وقد دفعته هوايته إلى الدخول في مسابقات للسباحة الطويلة. فجأة سارت المركبة في طريق فرعي، وإذا بي أمام منازل قديمة جميلة وآسرة لقرية فلسطينية تحمل معها قصة حزينة.

وجدت نفسي عند مدخل قرية فلسطينية عربية تُعرف باسم عين حوض، وقد أبقتها إسرائيل كما هي من دون أي تغيير، وذلك بعد أن هجّرت جميع سكانها ومنعتهم من العودة بعد الحرب في سنة ١٩٤٨. كثيرون من أهالي عين حوض استمروا في العيش في المناطق التي وقعت تحت سيطرة إسرائيل. وبخلاف القرى الأُخرى التي جُرفت ودُمرت، فإن إسرائيل

حافظت على هذه القرية وغيرت اسمها إلى "عين هود" وسلّمتها لفنانين إسرائيليين كي يحولوها إلى مرسم كبير في سنة ١٩٥٤.

سرنا وسط القرية الجميلة الخلابة التي تذكّر بما كانت عليه الحال عشية النكبة. رأيت المراسم الإسرائيلية في المنازل مضاءة كأننا في وسط النهار، ونظر إلينا بعض الفنانين الإسرائيليين بعلامات استفهام من دون التحدث إلينا. وقفت أمام مسجد البلدة القديم الذي فقد قبّته وسقطت هيبته بسبب تحويله إلى مطعم.

هذا كله له معانٍ كثيرة؛ شعرت بأنني في حضن التاريخ أكتشف كيف يتحكم المنتصر في المكان، فيغير المساحات والمباني ومعانيها، ويرسّخ روايته بما يتلاءم ونظرته إلى التاريخ. هنا أيضا تقع مقاومة الخاسر الذي يسعى لاستعادة التاريخ بينما يبحث عن مستقبل مختلف.

أكتشف في عين حوض معادلة غير عادلة بين أزمان متنوعة. عندما تقف أمام منازل مصادَرة وحقوق مسلوبة ترى النقيض فوراً؛ ترى وجوه الضحايا وصراخهم وخوفهم وارتباكهم ليلة النكبة، ترى معاناتهم عندما ساروا بوجوم وحيرة بحثاً عن مكان آمن، خوفاً من مجازر وفتك، وترى مسلسل حياتهم في مخيمات الشتات وفي مناطق اللجوء. هدوء المكان خادع، إنه يعكس بؤس العنصرية وخواء الظلم الذي لا ينتج إلاّ النقائض والتناقضات.

تساءلت وأنا في القرية: ماذا كان سيحدث لو قام عرب فلسطينيون بتحويل مكان لليهود إلى مرسم وصادروا أراضي يهودية ومنعوهم من العودة إليها؟ تساءلت عن سلوك الإسرائيليين اليهود بصفتهم أحفاد مَن مروا بتجارب الاضطهاد؟ تساءلت عن الأساس الذي يجعل مَن اضطُهد سابقاً قادراً على إعادة إنتاج الاضطهاد ذاته والتعذيب النفسي والجسدي إياه الذي مورس بحقه؟

لكن أبناء وبنات قرية عين حوض الفلسطينية سعوا للعودة إلى قريتهم بأسلوب مبتكر، وسهّل ذلك أنهم كانوا في مدن وقرى قريبة من بلدتهم المصادرة، بصفتهم من أبناء مَن بقوا على الأرض وحملوا الهويات الإسرائيلية. وقد حاربت إسرائيل فكرة العودة، إلاّ إن نضالهم السلمي وصلابة موقفهم استمرا بلا توقف إلى أن نجحوا في تحصيل جزء من حقهم في العودة عبر بناء قرية جديدة على جزء من أراضيهم. فعلى بعد كيلومتر من القرية الأولى، وعلى أراضٍ تابعة لها، بدأ أهاليها ببناء بضعة منازل ومسجد، بينما قامت إسرائيل بمنع مدّ الكهرباء والماء إليهم. عين حوض استرجعت حق العودة بطريقتها الخاصة.

حقّ العودة يعني حق المليون وسبعمئة ألف من سكان الداخل في استعادة كثير من الأملاك التي صودرت في أراضي ١٩٤٨ منذ قيام الدولة. بل يعني ممارسة حقهم في العودة إلى القرى والمناطق التي طُردوا منها بعد النكبة، حتى إن كانوا استمروا في العيش ضمن ما أصبح يسمى إسرائيل، وفوق كل شيء يعني مساواة فلسطينيي الداخل في الحقوق كافة.

وحق العودة بالنسبة إلى سكان الضفة الغربية والقدس وغزة يعني الحق في السيطرة على حياتهم واقتصادهم ومطارهم وحدودهم وفوق كل شيء أرضهم، وخصوصاً سكان غزة الذين يعانون حصاراً خانقاً، ويعني أكثر من ذلك للاجئين في الضفة وغزة من مناطق فلسطين التي

احتلتها إسرائيل في سنة ١٩٤٨. حق العودة يساوي التوقف عن الظلم بأشكاله كافة.

حق العودة بالنسبة إليّ لا يعني ممارسة ظلم تجاه اليهود كالظلم الذي مارسته الصهيونية بحق العرب الفلسطينيين، بل يعني بناء جبهة مكونة من كل مَن يؤمن بالعدالة في فلسطين، وبحق العودة للشعب الفلسطيني في إطار السعي لحل المشكلات التي نتجت من التطهير العرقي الصهيوني منذ نكبة ١٩٤٨. إن حق العودة هو أساساً حق الشعب في ممارسة سيادة حقيقية بما يتعلق بمصيره، وهو نفي لكل ما يرمز إلى التمييز العنصري والقهر القومي والطرد الجماعي.

في رحلاتي المتفرقة إلى فلسطين، اكتشفت سحر أرض فلسطين، فتاريخ فلسطين ونشوء إسرائيل على أنقاضها يثير مشاعر هي بين الرفض الشامل والقبول الواقعي والمتوتر. وعندما تتجول في فلسطين تحاصرك في كل دقيقة قصص اللجوء وألم الاضطهاد والإفقار والتهجير، ومصادرة الأراضي بأسلوب استعماري لا تخطىء العين رؤيته. ستكتشف في فلسطين هدوءاً ومقاومة تحتاج إلى نفس طويل. وفي كل مكان تتكرر القضية ذاتها: سيطرة إسرائيلية على الأرض بعد مصادرة ومنع للعودة وسلب للحقوق، وحرب على الناس والبسطاء والفقراء والضعفاء من عرب فلسطين.

في نهاية رحلتي اكتشفت عمق الصراع في فلسطين وتحوله من شكل إلى آخر، ثم انتقاله من ساحة إلى أُخرى، ففي يوم نجده في الخليل والقدس، وفي وقت آخر ينتقل إلى الناصرة وعكا بوتيرة جديدة ومضاعفة، أو ينتقل إلى الجهة الأُخرى من فلسطين حيث غزة المحاصرة التي يقطنها مليونا مواطن يعيشون حصاراً خانقاً ويُضرب بصمودهم ونضالهم المثل. وما دام الظلم قائماً، والذاكرة متجددة، والصهيونية على أهدافها، ونزعة الإنسان الفلسطيني والعربي ساعية لتصحيح الظلم التاريخي، فإن الصراع سيظل موجوداً وحاضراً بعدة أشكال.

أتساءل بعد رؤية واقع فلسطين كيف يحق لليهود أن يأتوا من بقاع الأرض كلها بحجة الدين اليهودي، ولا يحق لنا أن نتمسك بها ونعود إليها، على الرغم من أن أجدادنا ولدوا على هذه الأرض وانتموا إليها وامتلكوا أشجارها وبساتينها؟ قد تقوم دولة للفلسطينيين بين غزة والضفة، لكن، كيف ستقوم دولة صودر معظم أراضيها، وثلث سكانها من اللاجئين، والقدس، عاصمتها، مسلوبة بالكامل، وحق العودة والحقوق الإنسانية البسيطة معدومة؟ إن مقاومة هذا النمط من الظلم سيستمر. ففي الجوهر، لم يعد الصراع من أجل دولة أو دول، وإنما من أجل الإنسان والأرض والحقوق والكرامة والسيادة ودحر الاستعمار: هذا جوهر حق العودة. ■